

الفصل الثاني

الذاكرة التاريخية
وبطولة على بن أبي طالب

obeikandi.com

فى جمادى الأولى سنة ثمان هجرية اشتبك المسلمون لأول مرة مع الروم فى معركة مؤتة. وفى هذه المعركة هزم جيش المسلمين وقتل الثلاثة الذين كانوا قد عينهم النبى صلى الله عليه وسلم على الجيش، وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة^(١).

والغزوة الثانية التى قام بها المسلمون ضد الروم هى غزوة تبوك. ويحكى ابن هشام فى السيرة كما يحكى الطبرى فى تاريخه أن النبى صلى الله عليه وسلم أقام بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب سنة تسع هجرية، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم. وبعد أن حث الناس على المسير والأغنياء على النفقة، توجه إلى على بن أبى طالب وخلفه على أهله «وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا وتخففا منه. فلما قال ذلك المنافقون أخذ على رضوان الله عليه سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال: يابى الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني. فقال: كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي. فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا على أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى،

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، ط ٣، ج ٢ ص

إلا أنه لا نبي بعدى. فرجع إلى المدينة، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سفره^(١).

وتستمر السيرة فتحكى كيف عارض المنافقون النبى ، وكيف أن النبى سار بجيشه فى الصحارى حتى وصل إلى تبوك، «ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤية صاحب أيلة فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية»^(٢). وتمضى السيرة فتقول «فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضعة عشرة ليلة ولم يجاوزها، ثم انصرف قافلا إلى المدينة»^(٣). وبهذا تنتهى غزوة المسلمين لتبوك كما تروىها السيرة وكتب التاريخ.

وقد كان لهذه الغزوة فيما بعد صدى بعيد فى النفوس، واهتم بها الشعب اهتماما كبيرا ظهر أثره فيما ألف من قصص شعبية - شعرية ونثرية - عن هذه الغزوة. وتضم مخطوطات جامعة برلين - وهى الآن موزعة بين جامعات ألمانيا - خمس مخطوطات بين كاملة ومنقوصة، تحكى قصة هذه الغزوة بطريقة أو بأخرى. وهى ثروة أدبية شعبية لا يمكن إنكار قيمتها.

ولا بد أن نقف الآن وقفة مليّة عند هذه المخطوطات، نصفها ونقارن بينها. ويتضمن فهرس المخطوطات العربية ببرلين لمؤلفه «ألوارد Alwardt» أرقام هذه المخطوطات، وهى على النحو التالى:

(١) نفسه، ج ٢ ص ٥١٦ - ٥١٩.

(٢) نفسه ص ٥٢٥.

(٣) نفسه ص ٥٢٧.

وانظر كذلك تاريخ الطبرى، ط ليدن، ج ١، ص ١٦٩٦.

(أ) ألوارد: الجزء التاسع ص ١٨٢ رقم ٩٦٢٧، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (أ).

(ب) ألوارد: الجزء الثامن ص ٢٢ رقم ٨٩٩٠، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (ب).

(ج) ألوارد: الجزء الثامن ص ٦٧ رقم ٩١٠٥، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (ج).

(د) ألوارد: الجزء الثامن ص ١٤٠ رقم ٩١٥٩، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (د).

(هـ) ألوارد: الجزء التاسع ص ٢٢٧ رقم ٨١٧٩، وسنشير إلى هذا المخطوط بالرمز (هـ)^(١).

والى جانب هذه المخطوطات العربية عشر كذلك على مخطوط يتضمن هذه القصة بلغة السواحيلية، وسنرمز لهذا المخطوط بالرمز (و)^(٢).

(١) هذه المخطوطات قد نقلت إلى جامعة توينجن بألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية، ورموزها بهذه المكتبة على الترتيب الذى ذكرناها به هي:

- 1- Berlin Pelermann 11 495 من ص ١٤٩ وإلى ص ١٦٧
- 2- Berlin Pelermann 11 460 من ص ٤٥ ظ إلى ص ٧٥ و.
- 3- Berlin Pelermann 1 259 من ص ٢٠ وإلى ص ٣٧ ظ.
- 4- Berlin Pelermann 11 614 من ص ٤١٤ وإلى ص ٤٢١ ظ.
- 5- Berlin Pelermann 11 747 من ص ٧٢ وإلى ص ٨٠ ظ.

(٢) السواحيلية هم سكان ساحل افريقيا الشرقى فيما بين خطى عرض ٢، ٩

جنوباً، وهم مزيج من العرب والزنج، ولهم لغتهم الخاص بهم، وترجع صلتهم بالعرب إلى القرن الأول الميلادى. أما إقامة العرب الحقيقية فى بلادهم فترجع إلى سنة ٦٨٩ ميلادية. وأثر العرب كبير فى لغة هذا الشعب وأدبه، فلغتهم تتضمن كثيراً من الألفاظ العربية، وأوزانهم الشعرية متأثرة إلى حد بعيد بالأوزان العربية، كما أن تراثهم الشعبى يتضمن قصصاً عربية خالصة إلى جانب تضمنه لقصص هندية وفارسية. (انظر: Encyc. Britannica' vol, 21, (P. 629

أما القصة فى المخطوط (أ) فتبدأ بأمر من الله إلى الرسول للذهاب إلى تبوك، حيث تجتمع جيوش الروم لمحاربتة. ثم تمضى القصة فتقول: «قال أبو الحسن البكرى: وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثر العسكر، وكان معه فى هذه الغزاة أربعمئة جمل تحمل الزاد، ومئة تحمل العدد والسلاح.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم لابس من قباطى مصر مدرعا بدرعه فلبسه. وكان صلى الله عليه وسلم ساير كأنه البدر فى ليلة أربعة عشر أو خمسة عشر، إذ هبط عليه الأمين جبريل عليه السلام من عند رب العالمين وقال له: «يا محمد، ربك يقريك السلام. ويخصك بالتحية والاكرام، ويقول لك رد على ابن عمك إلى المدينة، فلى فى ذلك مشيئة وتدير، وأنا على كل شئ قدير. ورد فلان وفلان رجالا عدهم جبريل أربعة وسبعين رجلا^(١)». ثم تمضى القصة فتقول: «فعند ذلك نادى النبى صلى الله عليه وسلم: أين أنخى وابن عمى على؟ فأجابه بالتلبية، فقال: اعلم يا على أن الله عز وجل أمرنى برجوعك إلى المدينة أنت ورجال

= ومن القصص العربية التى وصلت إليهم قصة غزوة تبوك التى استطاع السواحيلى أن يصوغها شعرا. وقد عثر على مخطوط هذه القصة السواحيلية أحد المبشرين الأوربيين وأودع المخطوط مكتبة الاستشراق الألمانية، وقام بترجمته الأستاذ الدكتور «ج.ج. بوتنر» أستاذ لغة السواحيلى بقسم اللغات الشرقية ببرلين.

(انظر مجلة: Zeitschrift für Kolonial Sprache; Herausgeben von Karl Mainhof سنة ١٩١١، ١٩١٢ والقصة الشعرية المترجمة تحت عنوان: كتاب هرقل.

Das: Buch von Hirkal.

ص ٤ - ٣٦، ص ١٠٨ - ١٣٦، ص ١٩٤ - ٢٣٢، ص ٢٥٩ - ٢٩٦.

(١) (١) ص ١٤٩ ظ، ص ٢ - ٩

معك. فقال الإمام على رضى الله عنه: سمعا وطاعة لله ولك
يارسول الله. فضمه النبي إلى صدره وبكى، وقال يا على: لا تنتم
فإن لله فيك مشيئة وتدبيراً، وهو على كل شئ قدير^(١).

ثم تذكر القصة حديث المنافقين بعضهم مع بعض فى شأن
رجوع على كما أورده ابن هشام. وبعد ذلك تصف رحلة النبي
صلى الله عليه وسلم وكيف ضلت ناقته أثناء الطريق، «فخرج
أصحابه فى طلبها، وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من
أصحابه يقال له عمارة بن جرير، وكان إلى ناحيته رجل من
المنافقين فقال لعمارة: «أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن
خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ضلت؟» فلما أتى عمارة صوب
النبي صلى الله عليه وسلم بدأه النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام
فقال يا عمارة: إن رفيقك قال إن هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم
أنه يخاطب من السماء وهو لا يدري أين ناقته، والله إنى ما أعلم إلا
ما علمنى الله عز وجل، وقد دلتنى الله عليها وهى فى عرض هذا
الوادى، قد حبستها شجرة بزمامها. فانطلقوا وأتوا بها»^(٢).

ثم تمضى القصة فتقول: «قال الراوى: وكان ملك الروم هرقل
قد سمع بمسيرهم إليه فأمرهم الأسقف بن مهران، وأمرهم أن
يجتمعوا إليه من كل جانب ومكان. وكتب إلى صاحب قيسارية
وصور وصيدة وبيرت، وكتب إلى جميع البطارقة والعمالقة،
 واجتمع إليه الملوك مرقص (كذا) صاحب بيت المقدس، وساروا

(١) (أ) ص ١٤٩ ط، س ١١ - ١٥.

(٢) (أ) ص ١٥١ و، س ٥ - ١٣.

حتى اجتمعوا بالأرض البيضاء، وتقدم بولص بن عبد الصليب بجيوشه وعساكره فترجلت جميع العساكر وقبلوا الأرض بين يديه. وإن ملك الروم أقام ثلاثة أيام حتى استراح، فلما كان في اليوم الرابع دخلت إليه البطارقة والعمالقة وقالوا: «أيها الملك، عشت طول الزمان، ووقيت طوارق الحدثان. قد تواترت إلينا الأخبار أن ملك العرب قد جمع إلينا عساكره، وسار إلينا يريد أن يطفئ جمره النصارى ويقطع أثرهم من الشام ويظهر دينه، وقد اجتمعت حشاشة العرب ومن لا خلاق لهم، وقد وعدهم نبيهم بلبس الديباج والحرير، وقد خرجوا أصحابه مطيعين سامعين^(١)»، وعند ذلك استعدت جيوش الروم وأرسلت الجواسيس لمعرفة أخبار جيش الإسلام، ثم تقابل الجيشان، وكان كلما تفوق جيش الروم طلب المسلمون المدد، وكلما تفوق جيش المسلمين طلب الروم المدد حتى إذا كانت نهاية القتال تفوق الروم على المسلمين، وعندئذ أخذت الأبطال تولول وتصرخ، وسمع النبي المقداد بن الأسود يكي فسأله النبي: مما بك يا سيد بنى كندة، لا أبكا الله لك عينا، فرد عليه المقداد قائلاً: لو كان سيف الله معنا في هذا اليوم لأراحنا من هؤلاء الكفار الملاحين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من هو يا مقداد؟ قال: هو الإمام على رضى الله عنه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فكيف لنا الساعة به وهو بالمدينة ونحن بتبوك^(٢)؟ فلم يتم كلامه إلا وقد حبط

(١) (أ) ص ١٥٢ ظ، س ١٥ - ١٩ ثم ص ١٥٢ و، ١ - ١٠.

(٢) (أ) ص ١٥٩ ظ، س ٢٠ ثم ص ١٦٠ و، س ١ - ٤.

جبريل عليه السلام وهو يقول: «العلی الاعلی یقریک السلام، ویخصک بالتحية والاكرام، ویقول لك یا محمد نادى بعلى، فلو أنك بالشرق وعلى بالمغرب وناديته أجابك بقدرة الله عز وجل وإنه على كل شیء قدير^(١)» فما أن نادى رسول الله عليا حتى أجابه وهو فى المدينة قائلا: لبيك لبيك يا رسول الله. ثم إن الامام على رضى الله عنه لبس عدته وتدرع، وودع فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وركب جواده وسار وهو يخاطب جواده الميمون ويقول: اقصد إلى صاحبك محمدا صلى الله عليه وسلم. ثم أطلق عنانه، فمد الجواد الميمون أذرعته وعينيه بإذن الله تعالى، وامتد على الأرض وصدعها بحوافزه، فبقى الإمام على رضى الله عنه طائرا^(٢)» وفى لحظة كان على بين صفوف المحاربين. «ولما دنا من النبى صلى الله عليه وسلم ضمه إلى صدره وقبله ما بين عينيه، وألبسه قميصه الذى عرق فيه. قال الامام على رضى الله عنه فشمت عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه الكافور والعنبر، ثم أدرعه النبى صلى الله عليه وسلم بدرعه الفاضل وعممه بعمامته السحاب، وقلده بسيفه ذو الفقار، وقال يا أبى الحسن خذ اليوم بثأر أخيك جعفر، وأجمل واذكر ابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم. قال الراوى: فحمل الامام على رضى الله عنه وقصد عسكر الروم وهو ينشد:

(١) (أ) ص ١٦٠ و، س ٧ - ١٠.

(٢) (أ) ص ١٦١ و، س ١٠ - ١٩.

أنا فى الحرب إليها وبنفسى أفتديها
نعمة من خالق الخلق قد خصصنيها
ولى الفخر على الناس بفاطمه وبنيتها
ولى السبقة فى الإسلام طفلا ووجيها
ولى وقفات بيدريوم حار النهار فيها^(١)

فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم شعر الامام على رضى
الله عنه تبسم وقال^(٢) يا على يا أبو الحسن دوس أعداء الله، دوس
الحصيد بأيدى العبيد، ولا يفوتك عدو الله بولص. استودعتك
لمن لا تخيب لديه الودائع، وهو القريب المجيب. فعند ذلك حمل
الامام على رضى الله عنه فخر الميمون من تحته كأنه البرق الخاطف،
أم السحاب الواكف، فحمل بين العسكرين وكلما مر بكتيبة من
كتائب المسلمين يظنون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل
بنفسه. هذا وأن الإمام على رضى الله عنه حمل على الميسرة أقلبها
على الميمنة، والميمنة أقلبها على الميسرة، فعندها نادى سالم مولى
حذيفة، والله هذه شمائل مولاى على. فقال موله: لا تخلف،
على بالمدينة. قال: يا مولاى ربنا أذن له بالحق أن يدركنا فى هذه
الشدة ويرحمنا به، ثم إن الغلام حد نظره نحو الإمام على بن أبى
طالب رضى الله عنه وقال يا مولاى: إن لم يكن هذا مولاى على
فاجلدن مائة جلدة. فقال له حذيفة: اللهم نعم، وإن كان عليا
ففرسك ولامه حربك لك حلالا طيبا. قال أبو الحسن البكرى

(١) (أ) ص ١٦١ ظ، س ١ - ٥.

(٢) ليست فى النص.

رحمه الله: وكان أيضا لأبي أيوب الأنصارى غلاما فيه ثقة ودين. فلما نظر إلى حملة الإمام رضى الله عنه قال الغلام: ياسيدى هذا والله مولاي على رضى الله عنه. فقال أبو أيوب الأنصارى: وبلك لا تخلف، أنت تعلم أن عليا تركناه بالمدينة، ولكن اذهب فإن كان عليا فأنت حر لوجه الله تعالى، ولك منى ألف درهم هبة لوجه الله تعالى، فمضى الغلامان معا إلى الإمام على بن أبي طالب رضى الله عنه وهو يحمل على المشركين فيقلبهم بعضهم على بعض. قال: فتقدما إليه الغلامان ونادياه: بحق من أعطاك هذه المنزلة من أنت. فقال الإمام على بن أبي طالب رضى الله عنه وهو فى طعنه وضربه: يا غلام أبو حذيفة، ارجع إلى مولاك وخذ منه لامة حربك وفرسك حلالا، ويا غلام أبو أيوب الأنصارى، ارجع إلى مولاك وخذ منه الألف درهم وقل له يعتقك من الرق، فأنا الإمام على بن أبي طالب.

قال الراوى: فرجع كل واحد منهما إلى سيده وأخبره بمجئ الإمام على رضى الله عنه ويبلغه ما وعده به، قال أبو أيوب الأنصارى: فتعجبت وخرجت انظر إلى فعل الإمام على رضى الله عنه، وإذا به قد زعق على المشركين زعقة الغضب، وهى المشهورة عند أهل العرب، ونادا يا معاشر بنى الأصفر أنا ابن عم محمد، أنا الإمام الغالب، أنا رامى الأعداء بالمصايب، أنا على بن أبي طالب. قال أبو حذيفة ومن خرج معهم ينظرون: والله لقد رأينا عساكر المشركين يتكربسون بعضهم على بعض، ورأينا الإمام على رضى الله عنه وقد قصد فى جملته إلى العلم الذى على رأس بولص بن

عبد الصليب كأنه العقاب الكاسر أو الليث الذى إلى فريسته مبادر، وهو يزعم: واثارات جعفر الطيار، وانقض على الملك بولص وجذبه بأطراف درعه وعلقه كما يعلق الباشق العصفور، ثم جعل بيده اليسار درقته، وحمل على المشركين، قال الراوى: وإذا بالأسقف بن مهران وهو يقول: يابنى الأصفر، أفنوا العرب جماعى الحطب وقطاعى الرطب. فلما رآه الامام على كرم الله وجهه هجم عليه وأخذه بيده والأسقف باليد الأخرى، ثم نادى أنا آخذ الثأر، أنا أخو جعفر الطيار^(١)، أنا الفارس الكرار، أنا قاسم الجنة والنار، أنا ابن عم محمد المختار، ما بدا الليل والنهار. قال أبو الحسن البكرى رحمه الله تعالى: فلما نظر المشركون إلى ملكهم فى يد الإمام على رضى الله عنه هابوه ولم يقدرُوا عليه، واندفعوا منهزمين. ففرحوا المسلمين بذلك وأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بما جرى، فدعا للامام على رضى الله عنه وجزاه خيرا وقال: «يا قوم على طينته من طينتى، والله ما يجه إلا مؤمن تقى، ولا ييغضه إلا منافق شقى»^(٢).

وتنتهى القصة بأن قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى: «يا على أنت ترجع إلى المدينة. قال: نعم يا رسول الله، وأنا أسير بالعماسك الهونى وتجتمع جميعا بالمدينة إن شاء الله تعالى»^(٣). ومكث النبى

(١) جعفر الطيار هو جعفر بن أبى طالب، شهد غزوة مؤتة واستشهد فيها ويقول ابن هشام إنه «أخذ اللواء يمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث شاء». (انظر ابن هشام فى السيرة، ج ٢ ص ٣٧٨).

(٢) (أ) ص ١٦١ ظ، ص ١٦٣ و، س ١ - ١١.

(٣) (أ) ص ١٦٣ ظ، س ١١ - ١٣.

بعد ذلك أياما فى تبوك صفح فيها عن بعض من تخلف فى القتال، ثم كرر راجعا^(١).

ثم نعرض لتفصيلات القصة فى المخطوط (ب) لما بينها وبين تفصيلات المخطوط (أ) من اختلاف.

تقول القصة فى بدايتها: «روى عن عبد الله بن العباس رضى الله عنه قال: كنا جلوسا عند الرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء خبر ابن عمه جعفر الطيار وصاحبه أبى رواحة، وزيد بن حارثة، فهملت عيناه وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ثم دخل الدار، وقعد للعرزا مدة سبع أيام، والناس يأتون إليه من كل جانب ومكان يعزونه، فلما كان اليوم الثامن انقضى العزا أتاه جبريل وعزاه، ثم قال يا رسول الله: العلى الأعلى يقريك السلام، ويخصك بالتحية والاكرام، ويقول لك إلى متى أنت قاعد. قم وخذ بالثأر، واكشف عنك العار، من الكفار والفجار، وقد أمرك ربك بالغزات إلى تبوك^(٢)».

وبهذه البداية يختلف المخطوط (ب) عن المخطوط (أ)، فبينما يصور المخطوط (ب) غزوة تبوك على أنها حرب انتقامية لغزوة مؤته التى استشهد بها جعفر الطيار، نجد المخطوط (أ) لا يهتم بهذا

(١) تتحدث سورة التوبة عن المنافقين والذين تخلفوا عن القتال فى غزوة تبوك وعن صفح الرسول عنهم، وقد اختتمت القصة فى هذا المخطوط بأية التوبة من هذه السورة: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة... إلى قوله تعالى: «ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم»

(٢) ص ٤٥ ظ، س ١ - ٦

الحادث، ويكتفى بذكر الوحي الإلهي الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، يأمره بالقيام بتلك الغزوة.

وتستمر القصة في (ب) بعد ذلك في سردها فيأمر النبي عليا بكتابة خطاب إلى ملك الروم يشرح له فيه نبوته ومعجزاته، ويدافع فيه عن الإسلام، ويخيره بين الإسلام أو القتال. ثم دعا برسول يدعى «خاطر بن عامر العبسي» لكي يحمل الخطاب إلى هرقل، فأخذه ومضى إلى منزله، ولبس ثياب نفرة، وركب مطيته واستوى في كور ناقته، ولزم زمامها، وأخذ يجد السير ليلاً ونهاراً، وعشياً وأبكاء، حتى غاب عن المدينة وغابت المدينة عنه، ثم إنه أنشد يقول، أفلح من يصلى على الرسول:

يا نوق سيري من بلاد يشرب

نحو بلاد الشام فبكي واطلبي

في حاجة الهادي النبي العربي

أفديته بروح أمي وأبي

فهو عمادي عند كشف الكرب

يا نفس جدي في المسير واقربي

الله ينجيكي من قضاء الطلب

أرض تبوك في الظلام اطلبي

اطوي الفيافي في البيابى الخرب

معي كتاب من نبي عربي

قال الراوى رضى الله عنه: فبينما هو يهذى بهذه الأبيات وإذا بهاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول:
ياصاحب الهادى النبى اليربى

وفقك الله لدفع الكرى
بادر على اسم الله لا ترتهب

فى حاجة المختار خير العربى
اقصد إلى الشام وجد الطلب
بلغ رسالات النبى اليربى
تنال فى الجنان خير المطلب

من الإله القادر المهيمنى (كذا)^(١)

«قال صاحب الحديث: فلما سمع خاطر هذه الأبيات فرح فرحا عظيما، وعلم أنه فى أمان الله تعالى، فجعل يجد السير ليلا ونهارا مدة عشرة أيام بلياليها؛ فلما كان اليوم الحادى عشر أشرف على بلاد الشام^(٢)» وهناك قابل الأسقف وسلم إليه الرسالة، ثم أرسل الأسقف رسولا من عنده يصطحب خاطرا ويوصله إلى دمشق حيث الملك هرقل. فلما اطلع هرقل على رسالة النبى عبر عن سخطه وغضبه بمفتريات على النبى وقومه، فرد على خاطر دعاواه، وخرج وهو ينذره بمجمعى الرسول إليه، عند ذلك أخذت جيوش الرسول تستعد للرحيل، فأخذوا يجمعون الزاد، كما أخذ الأغنياء ينفقون ما عندهم، لكن الزاد لم يكن كافيا، فأمر النبى المحاربين أن يتزودوا من

(١) (ب) ص ٤٧ ط، س وما بعده.

(٢) (ب) ٤٨ و، س ١ - ٢.

حنظل كان ينبت فى واد قريب منهم، ففعلوا، دون أن يساورهم شك فى قيمة هذا الحنظل، إلا المغيرة بن شعبة، الذى كان يجمع الحنظل وهو يشك فى قيمته، ثم سارت الجيوش تحبب الفيافى، وعند ذلك أخرج المغيرة ما عنده من الحنظل ورماه فى القفر ولم يحتفظ إلا ببضع حنظلات منه، ثم أتاه عبده يسأله عن حنظله، فأخبره بأنه رماه، فتعجب العبد، وذكر سيده بأنه قد خالف أوامر النبى، بل قد شك فى معجزاته، قال له: «لقد أسأت الظن برسول الله، وأن الله قادر على أن يقول للشئ كن فيكون. فقال: والله لقد صدقت. ثم أنه كسر واحدة منه فخرجت مملوءة شهداً وزيداً طرياً، أطيب من رائحة المسك، وأحلى من العسل^(١)».

ثم يسهب المخطوط بعد ذلك فى وصف حماسة أبطال الجيش الإسلامى حينما أخذ النبى يوزع عليهم الرايات، ثم فى وصف مسيرة الجيش فى الصحراء، وتلك الحفاوة التى استقبل بها النبى من رجل يؤمن به يدعى فزارة. ثم استأنف الجيش بعد ذلك سيره حتى وصل إلى تبوك. وكان من بين القواد أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وهناك دارت المعارك الطويلة والمبارزات الفردية بين الجيشين. وقد كان جيش الإسلام وأبطال المسلمين منتصرين دائماً، فلما علم هرقل بذلك عبأ كل جيوشه للقتال، وأرسل جاسوساً يستطلع أخبار جيش المسلمين، فافتضح أمر الجاسوس، ولكن النبى عفا عنه، فولى راجعاً، «فلما حضر قال له الملك: ما شاهدت؟ فقال أيها الملك: أيما أحب إليك: الصدق أم الكذب^(٢)».

(١) (ب) ص ٥٢ ظ، س ١٠ - ١٥.

(٢) (ب) ص ٦٦ و، س ٩ - ١٠.

فلما أمره الملك أن يقول ما عنده أخذ يمتدح الرسول، فثارت ثورة هرقل، وأمر بضرب عنقه. ثم استدعى قسا عنده كان عالما ودارسا للأديان حتى يسأله عن أمر النبي محمد، وقال له: «ألا تنظر إلى ما قد حل بنا من هؤلاء البادية وطمعهم في بلادنا طالبين الثأر. فقال القسيس: أيها الملك لا تجزع، فلو كانوا ملء الأرض طولاً وعرضاً فإنهم هالكون، إلا أن يكون لهم سيد يرجعون إلى رأيه. فقال الملك: لهم سيد، يزعم أنه نبي مرسل. فقال القسيس: وما اسمه؟ فقال الملك: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وكان قد ظهر هذا الزمان فقال الملك: هل له صفات عندكم في الكتب السالفة فقال القسيس: نعم إنه صاحب التأويل، ويحفظ علوم الأولين والآخرين، وهو النبي الصادق الأمين^(١)»، فعند ذلك أمر هرقل بقطع رأسه، فمات وهو يتشهد، ولم يجد هرقل بدا من أن يحمل على عسكر المسلمين بكل ما عنده من جيوش، وفوجئ المسلمون بهذا الحشد وحملوا على الروم، ولكنهم وجدوا أنفسهم ضعافاً أمامهم. ولما قتل منهم عدد كبير أخذ اليأس يتسرب إلى أنفسهم فاندفعوا إلى رسول الله يشكون إليه أزمته، فلما بث فيهم الشجاعة ووعدهم بالنصر خاضوا المعركة مرة أخرى، ولكنهم فشلوا، فلم يجدوا بدا من أن يفصحوا للرسول عن سبب هزيمتهم، وهو غياب على عن المعركة، فاعتذر لهم الرسول بأنه لم يكن السبب في تغيب على، إذ قد أمر الله بذلك، وفي تلك اللحظة ظهر جبريل عليه السلام للرسول يشره بحضور على إلى المعركة. ثم تستمر القصة بعد ذلك مسaire

(١) (ب) ص ٦٦ ظ، س ١٠ - ١٧.

لخطوط القصة الأولى حتى ينتصر المسلمون بفضل بطولة على
رضى الله عنه، ثم يرجع الجميع إلى المدينة.

فإذا حاولنا أن نقارن هذه القصة في المخطوط (ب) بتلك التي
عرضنا لها في المخطوط (أ) وجدنا أن الدور الذي لعبه الخيال
الشعبي في (ب) أوضح منه في (أ). فإذا كانت القصة في (أ)
قد حاولت أن تتقيد بالتاريخ حينما أتت بحادثة ضياع ناقة الرسول
دلالة على معجزاته كما ذكرنا، نجد القصة في (ب) قد أغفلت
هذا الحادث واخترعت شيئاً آخر، فأنت بحادثة المغيرة والحنظل، هذا
بالإضافة إلى تلك التفصيلات الكثيرة التي أضافها القاص من وحي
خياله. من قبيل ذلك إرسال النبي رسوله يحمل رسالة إلى هرقل،
وحديث الرسول مع نفسه في الطريق، ثم سماعه لذلك الصوت
السموأي المطمئن له، ثم الحديث الذي دار بينه وبين هرقل. ومن
ذلك أيضاً حادثة القس الذي أعلن شهادته أمام هرقل.

بعد هذا نعرض المخطوط (ج)، وهو يعد رواية ثالثة للقصة. فبينما
يتفق مع المخطوطين السابقين في بعض الحوادث إذا به ينفرد عنهما
ببعض الحوادث والمواقف. فهو يتفق مع (أ) تماماً في بدايته،
ويمضي بعد ذلك مع (ب) في سرد قصة الرسول الذي أرسله النبي
إلى هرقل مع شيء من الإيجاز، واسم الرسول بهذا المخطوط هو
حاطب بن ثعلبة. ثم تصف القصة بعد ذلك رحلة النبي إلى تبوك،
لكنها لا تورد حادثة ناقة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو الحال
في المخطوط (أ)، كما لا تورد حادثة المغيرة بن شعبة والحنظل،

كما هو الحال فى المخطوط (ب)، أما حادثة الجاسوس الذى أرسله هرقل إلى المسلمين ليستطلع أمورهم، التى ذكرت فى كلا المخطوطين (أ، ب) وكذلك حادثة القس الذى دافع عن النبى فى حضرة هرقل، التى ذكرت فى (ب)، فتردان فى هذا المخطوط.

أما الشئ الذى ينفرد به (ج) فهو تصويره لبعض الحوادث، وكذلك إضافته بعض التفاصيل، لقد صور القاص الروم على أنهم قوم يعبدون الأوثان، وليس فى ذلك شئ من الغرابة بالنسبة للتصور الشعبى، فالروم فى هذا التصور قوم كفرة. وكما كان العرب الجاهليون كفرة يعبدون اللاة والعزى، فكذلك كان الروم. وها هو ذا هرقل يقسم بالأصنام ليحطمن دين الإسلام: «فوحق اللاة والعزى، والصنم الكبير والهبل الأعلى، لأقتلن أولهم وآخرهم»^(١).

وكذلك بالغت القصة فى (ج) فى تصوير حادثة القس، فهو إذا كان فى (ب) قد دافع عن النبى ثم استسلم لسيف هرقل وهو يتشهد، فهو فى (ج) بطل مغوار، قتل سبعمائة من حاشية هرقل فى ضربة واحدة، ولكنه مع شجاعته لم ينج من شره، فوقع شهيدا بضربة من سيف هرقل.

وينفرد هذا المخطوط عن المخطوطات الأخرى بذكره سببا لرجوع على إلى المدينة، تقول القصة:

«فتزل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم وقال: يا محمد، العلى الأعلى يقربك السلام، ويخصك التحية والاكرام، ويقول لك رد عليا إلى المدينة ليحفظها»^(٢). ولما استدعى النبى عليا فى تبوك

(١) (ج) ص ٢٨ ظ، س ١١ - ١٣.

(٢) (ج) ص ٢٦ و، س ٣ - ٥.

أخبره على بأن رجوعه إلى المدينة كان أمراً مهماً، وأن الله عليم بكل شيء، قال له: «حين رجعت من عندك إلى المدينة رأيت خمس آلاف فارس قاصدين المدينة يريدون يقطعون النخل ويكسبون المدينة، فحملت عليهم وقتلتهم عن آخرهم، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم واستبشر^(١)».

أما المخطوط (د) فالصفحة الأولى منه تشير إلى أن القصة مفقودة أولها، إذ أن هذه الصفحة لا تحمل عنواناً للقصة، فضلاً على أن سطورها الأولى لا تنقل إلينا البداية التي بدأت بها المخطوطات السابقة، أو أية بداية أخرى تصح أن تكون بدءاً للقصة، ففي أول هذا المخطوط نقراً: «وقد حملوا الكفار على جيش الأبرار، وأقبل ذلك الغبار، وقد حمل الأمير خالد، وهدر وهز العمود وزمجر، ثم كب رأسه في قريوس سرجه وصرخ: لا غالب إلا الله. ثم حمل المقداد، وتبعته المسلمين كأنهم الآساد»^(٢).

القصة إذن في هذا المخطوط ناقصة، ولا ينقل إلينا المخطوط سوى تلك الصفحات التي تصور المعركة قرب نهايتها. ومن هنا لا تتضح وجوه المقارنة بين تفصيلات الحوادث في هذا المخطوط وما سبقه من المخطوطات، وإنما الشيء الذي يتميز به هذا المخطوط هو أسلوبه. فمؤلف القصة هنا يكثر من السجع والأسلوب النثري المسجوع.

يبقى بعد ذلك من المخطوطات العربية المخطوط (هـ). والقصة تعرض في هذا المخطوط شعراً، وبداية القصة مفقودة هنا كذلك، فالمخطوط يبدأ بهذه الأبيات:

(١) د (ج) ص ٣٤ ظ، س ١٣ - ١٦.

(٢) د (د) ص ٤١٤ ظ، س ١ - ٤.

إن الملوك ما أقاموا الوزرا
 إلا لينفذ أمرهم بين الورا
 ساعة وصول ذا الكتاب لعندكا
 يا بولص انهض عاجلا من وقتكا
 واجمع الأبطال والجحافل
 من كل ليث بطل مقاتل
 وامضى بهم من كل بد وسب
 وأقصد إلى أرض الحجاز والعرب
 واقطعوا الأرض باهتمامى
 ما بين شرب مع بلاد الشامى
 وما لأحد عندنا جوابا
 إلا بضرب السيف والحرايا^(١)
 فلا بد أن هرقل يوجه هذا النداء لوزيره نتيجة حادثة معينة قد
 تكون وصول رسول النبي إليه، أو وصول جيش المسلمين إلى
 تبوك.

أما تفصيلات حوادث القصة الشعرية بعد ذلك فإنها تكاد تتفق
 تماما في تسلسلها مع المخطوط (ب)، ولا تختلف عنه إلا في عدم
 ذكرها لحادثة الجاسوس الذى أرسله هرقل ليستطلع أحوال جيش
 المسلمين، وحادثة القس الذى دافع عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) (هـ) ص ٧٢ و، س ١ - ٦.

ضد مزاعم هرقل . ويكاد يكون هذا المخطوط أروع المخطوطات العربية تعبيراً عن حوادث القصة، إذ لم يكن هدف الشاعر حكاية القصة فحسب، ولكنه أراد أن يصور لنا الحركة المتواصلة منذ أن تجمعت الجيوش الإسلامية غازية لأراضى الروم إلى أن انتهت المعركة أو قاربت الانتهاء^(١). ولما كان غرض الشاعر هو التصوير وعرض الحوادث لا مجرد حكايتها، فإننا نجده يستخدم الوسائل التعبيرية التي تعينه على ذلك، وليس هناك من تعبير يثير حماسة القارئ أو السامع ويجعله يرى الحوادث مصورة في مخيلته كما لو كان يشاهدها أمامه، ويتحرك معها نفسياً، مثل أسلوب الحوار. وهذا هو الأسلوب الذى صاغ فيه الشاعر الحوادث فى قصيدته، فقد بدأها بنداء من ملك الروم إلى وزيره بولص، فما أن سمع بولص كلام ملكه حتى كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبين له نتيجة غزوه لهم. وما لبث الرسول أن عاد برسالة أخرى من النبي، ودخل على بولص وحوله «الكفار كالأبالسة»، وكأنما كانوا يتدبزون أمرهم، وينتظرون فى لهفة رد النبي صلى الله عليه وسلم. فما أن قرئت عليهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم حتى قامت ثورة بولص، وقال من فوره للرسول:

قال استمع يا ذا الفتى كتابنا

وامضى وبلغ صاحبك جوابنا

وقل له ما عندنا جواباً

إلا بضرب السيف والحرا

(١) الجزء الأخير من القصة مفقود، وهو الذى يتناول حادثة مجئ على إلى تبوك، وشهوده المعركة.

نحننا أسود البر ما نبالى
 فى معمع الخيل ولا النضال
 جهاز لنفسك والتقىنا عاجلا
 فإن عسكرنا إذا بواصلا
 أنتم أسود البر والقفارى
 واحنا ليوث الحرب فى البرارى
 ولست تخدعنا بهذا الكلام

ونحن أعلمناك لا ملامى^(١)
 ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يزعه رد بولص، وبدأ يعد
 العدة للقتال، فنادى بلالا يدعو للأذان ولدعوة العرب إلى
 الاجتماع بالرسول. ثم ارتقى النبى صلى الله عليه وسلم المنبر وأخذ
 يخطب فيهم. ولم يرد الرسول صلى الله عليه وسلم من وراء ذلك
 دفعهم إلى القتال دفعا، وإنما أراد أن يعرض الأمر عليهم ويستشيرهم
 فيه. قال:

كونوا أعلموا أن الجهاد فرضى
 عليكموا فى طولها والعرضى
 وقد أمرنى الملك الجبارى
 نأخذ بتار جعفر الطيارى
 ومن قتل معه من الإسلامى

فما تقولوا معشر الكرامى^(٢)

(١) (هـ) ٧٢ و، الأبيات ١٢ - ١٧.

(٢) (هـ) ص ٧٢ ظ، الأبيات ٣٠ - ٣٢.

فما كان رد المسلمين عليه إلا تعبيراً عن الرغبة الخالصة والاستعداد التام للاشتراك في القتال:

قالوا جميعاً يا رسول الله

يا أكرم الخلق على الإلهى

احنا لما تقول طايعيناً

وأمرك المطاع يا أمينا

ولو تقول شيلوا الجبال شلنا

ولو تقول قاتلوا قاتلنا

ولو تقول خوضوا البحار خضنا

ولو تقول هينوا النفوس هنا^(١)

فما أن اطمأن النبي لاستعدادهم الخالص لخوض المعركة معه حتى أخذ في تجميع الجيوش من شتى القبائل والبقاع، وسارت الجيوش متفائلة مستبشرة.

ثم تذكر القصة بعد ذلك حادثة المغيرة والحنظل. وها هو ذا المغيرة يحكى قصته بنفسه:

فقال مغيرة كنت يا أصحابي

مع النسي المصطفى الأوابى

نزلت من وقتى عن حصانى

وقد جمعت حنظلاً يكفانى

(١) (هـ) ص ٧٢ ظ، الأبيات ٣٣ - ٣٦.

وسرت طالبا طيبة الأمانة
وقد علتني هيبة السكينة
فبينما أقطع المسيرى
فاختلج يا قوم فى ضميرى
وقلت هذا حنظل كالعلقمى
والله ما فيه لزاد يطعمى
ولا رأيته أبدا فى فايدا
تالله ما فى حمل هذا فايدا
فصرت أرميه ونا فى القفرا
حتى بقى من الجميع عثرا
فبينما أنسا ماير بجهدى
فالتقانى فى الطريق عبدى
وكان من بين العبيد صالح
وشاطر فى حربه وفالح
فقال يا مولاي فىن الزادى
اللى أوهبوك النبى الهادى
فقلت يا ذا الفارس المغفل
زودنسا محمد بالحنظل
فقال أين الزاد يا مولاي
أخبرن برافع السماء (ى)

فقلت له أرميته بجمعه
فقال لى أخطيت وفاتك نفعه
أما علمت سيدى أن النبى

صلى عليه ربنا فى الكتبي^(١)

وبعد ذلك يستمر الشاعر فى سرد القصة وتصوير حركتها،
فيرسم أمامنا صورة النبى صلوات الله عليه، وقد نظمت حوله
الجيوش إلى كتائب على رأس كل كتيبة قائد. وتأخذ الحماسة
الأبطال فيهتف أحدهم:

سيروا بنا يا معشر الإسلامى
على اسم رب ملك علامى
أنا الفتا المقداد بن الكندى
وفى الفوارس بطل مفندى
أضرب فيهم بحسام هندى
وأجول فى جيش الليام وحدى
وانعزل من وقته وساعته
وسارت الأبطال تحت رايته^(٢)
وينشد الآخر:

نسير للأعلاج والأورامى
وافنيهموا بالصارم الحسامى

(١) (هـ) ص ٧٣ ظ، الأبيات ٨١ - ٩٤.

(٢) (هـ) ص ٧٥ و، الأبيات ١١١ - ١١٤.

نسير لبولص والهرقل النمامى

نقاتله ونفنى الليامى^(١)

وقبل أن يصل الجيش إلى أرض تبوك إذا بالنبى صلى الله على وسلم يتوقف ويستدعى عليا، ويطلب منه الرجوع إلى المدينة لأن الوحي قد أنبأه بذلك. فرجع على مذعنا لأمر الله ولرغبة رسوله. ثم استأنف الجيش سيره حتى التقى بجيش الروم، وأخذ كلا المعسكرين ينافس الآخر فى إرسال المحاربين إلى ميدان القتال، فأحيانا ترجح كفة المسلمين وأحيانا ترجح كفة الروم، وكأننا نستمع لاستغاثات الأبطال من خلال ألفاظ القصيدة. فهذا بطل مسلم قد انسحب بكتيبته أمام جيش الروم وجاء يشرح لقائد الجيش الإسلامى خالد بن الوليد سبب اندحاره، وكأنما يطلب منه الصفح:

لما رأيت القوم كالبهار

وأقبلوا من ساير الأقطار

ولت جميع رفقتى وانهمزت

وأبطالنا لعندكم قد عزمتم^(٢)

وهذا العباس عم النبى يشتكى لرسول الله:

فقال له العباس يا حبيبى

يا صفوة الله العلى المجيبى

(١) (هـ) ص ٧٥ و، الأبيات ١٢٠ - ١٢١.

(٢) (هـ) ص ٧٧ ظ، البيتان ٢٢٤ - ٢٨٤.

لو سلمونا كلهم أرواحهم
كنا عجزنا كلنا عن ذبحهم^(١)

ولكن النبي أخذ يطمئنه:

قال النبي ياعم لا تبالي
معنا الإله الواحد المتعالى
لقد وعدنا خالقى بالنصرى
وهو معى فى عسرها واليسرى^(٢)

فلما تأزمت الأمور بين جيوش المسلمين وغلبتهم جيوش الروم لم
يجد العباس بدا من أن يصارح النبي بسبب هذه الأزمة التى حلت
بهم:

فعندها قد خرج العباسى
عم النبي طاهر الأنفاسى
وسيفه فى يده وترسه

ينفض من دم العدا نفسه
ولم يزل ساير من غير خفا
حتى أتى إلى النبي المصطفى

(١) (هـ) ص ٧٩، البيتان ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٢) (هـ) ص ٧٩، البيتان ٢٨٥ - ٢٨٦.

قال للهادى النبى يا سيدى
لو كان معنا فرد فارس واحدى
لا كان محيى عسكر الكفارى
وفنى الأعلاج والفجارى
فعندها قال النبى المرسلى
عن من تقول؟ فقال مولانا على
فعندما قال صاحب السكىنة
إن عليا يا عم فى المدينة
ويننا وبينه أيامى
ونحن ياعم بأرض الشامى
ارجع وقاتل عسكر الجهالى
وحرض القوم على القتالى^(١)
فعند ذلك رجع العباس يخوض المعركة مرة أخرى مع أبطال
المسلمين، ولكن دون جدوى.

وإلى هنا ينتهى نص القصة الشعرية، ولا بد أن القصيدة تمضى
مع حوادث القصة النثرية حتى النهاية، لولا أن المخطوط لا يتضمن
القصيدة بأكملها.

وإلى جانب أسلوب الحوار الذى تعرض فيه القصيدة القصة نجد
الأسلوب الانفعالى. فالقصيدة تختار من الألفاظ ما يصور الانفعالات

(١) (هـ) ص ٨٠ و، الأبيات ٣٢٥ - ٣٣٣.

تصويرا واضحا. فنحن نقرأ انفعال الغضب على وجه هرقل حينما وافته الأنباء عن تجمع جيوش المسلمين على حدود أراضيه. ونقرأ أثر تهديد بولص على رسول النبي صلى الله على وسلم فى أثناء رجوعه إلى المسلمين يحمل إليهم تهديد هرقل وعزمه على تخريب ديارهم:

فارتجع القاصد بالسكينة

فى سيره حتى أتى المدينة^(١)

ونقرأ الهدوء والاطمئنان اللذين انطبعا فى قلب النبي صلى الله عليه وسلم حينما قرئت عليه رسالة هرقل. ثم نقرأ السعادة التى ملأت قلوب الأبطال بعد أن تسلموا الرايات من الرسول صلى الله على وسلم وساروا قدام الجيوش عازمين على النصر.

ومن الواضح أن الشاعر كان يضع دائما نصب عينيه هدف رواية القصيدة على سامعيه. ولذلك كان حريصا على استعمال ألفاظ النداء وسيلة لتنبيه السامع. ومن أمثلة ذلك:

ثم طوى ذاك الكتاب الجاحدا

وأرسله ياقوم بيد القاصد^(٢)

فعند ذاك صارت السعاتى

إلى الغبار يامعشر الساداتى^(٣)

(١) (هـ) ص ٧٢ و، البيت ١٨.

(٢) (هـ) ص ٧٢ و، البيت ٨.

(٣) (هـ) ص ٧٦ ظ، البيت ٨٦.

وكان ميخايل يا حضارى

مقبل فى السير مع الكفارى^(١)

ولذلك أيضا كان الشاعر حريصا على إقناع السامع بحقيقة هذه الأخبار عن غزوة تبوك. فإذا ورد ما يمكن أن يشك السامع فى صحة الخبر، نسه توا إلى الرواة:

حتى قتل من عسكر الإسلامى

مئة كما قد قيل فى الكلام^(٢)

ولما كان الشاعر حريصا على تجديد نشاط السامع وجلب المتعة إلى نفسه، لا عن طريق القصة فحسب، وإنما عن طريق النغمة الموسيقية التى تلازم الشعر، فقد تخلص القاص عن نظام القافية الواحدة، واختار بحر الرجز يصوغ فيه شعره حتى يكون قريبا من النثر الموزون، أى من اللغة العادية.

بعد هذا نعرض لمخطوط السواحيلى. وقد ذكر الشاعر فى بداية هذا المخطوط السبب الذى دعاه إلى كتابة هذه القصة. قال: «إن أحد الأشراف قد وصلت لحوزته القصة العربية ونالت قدرا كبيرا من إعجابه، فاستدعانى وطلب منى أن أترجم هذه القصة، فجلست معه وأخذ يشرح لى ألفاظ القصة العربية وعباراتها^(٣)».

وفى نهاية المخطوط يذكر الشاعر أنه قد فرغ من قصيدته، ويعتذر

(١) (هـ) ص ٧٧ و، البيت ١٩٨.

(٢) (هـ) ص ٧٧ و، البيت ٢٠٧.

(٣) (و) ص ٥٢٤، الرباعيات ٧ - ٩ من الترجمة الألمانية.

عن وقوع بعض الأخطاء بأنه لا يتقن صنعة الشعر. وتألف هذه القصيدة من ألف بيت وسبعة أبيات من الشعر، وتأخذ شكل الرباعيات، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الشعب السواحلي قد اصطنع الأوزان الشعرية العربية. ووزن القصيدة السواحلية التي نحن بصددھا يعد دليلا على هذا، فهي من مجزوء الرمل. هذا بالإضافة إلى أن القصيدة تتضمن بعض الألفاظ العربية مثل: صفة، الودود، الأمير، يافهيمى، وغير ذلك.

وإذا كان الشاعر قد اعترف أن قصيدته ترجمة لقصة عربية فلا نحسبھا إلا ترجمة للقصة كما هي فى المخطوط (ب)، فتفصيلات الحوادث وترتيبھا فى (و) هي بعينھا فى (ب). هذا فضلا على أن المخطوط (و) يتضمن ترجمة حرفية لبعض نصوص (ب)، وهذه شواهد على ذلك:

فالقصة فى (و) تذكر فى بدايتها كما هو الحال فى (ب) خبر نزول جبريل عليه السلام على النبى، بينما كان جالسا للعرء فى الذين استشهدوا فى غزوة مؤتة. ثم تسير معها بعد ذلك خطوة خطوة، فتذكر استدعاء النبى عليا لكى يكتب له كتابا إلى ملك الروم. ثم تسليم النبى الكتاب إلى رسوله لكى يوصله إلى هرقل، ثم تصف بعد ذلك رحلة هذا الرسول، كيف سار فى الطريق يتغنى بشعره، وكيف سمع صوت الملك الذى بشره بنجاحه فى مهمته، ثم كيف تقابل مع الأسقف الذى أرسله بدوره إلى ملك بدمشق، ثم كيف أخذ يرد على الملك دعاواه ضد الإسلام، وكيف رجع أخيرا إلى النبى صلى الله على وسلم يحمل إليه عزم هرقل على مقابلته

فى ميدان القتال. كل ذلك وما يليه من الحوادث التى ذكرت فى (ب) ويذكره (و) مرة أخرى. فإذا أردنا بعد ذلك أن نتحقق من أن (و) ليست سوى نسخة أخرى للمخطوط (ب)، فما علينا إلا أن نقارن بين المخطوطين فى بعض التفصيلات والعبارات التى تؤكد دعوانا. ففى (و) أُملى النبى صلى الله عليه وسلم كتابه على علىّ رضى الله تعالى عنه فقال: «خذ يا علىّ القلم والورق واكتب ما أُمليه عليك. ابدأ باسم الله، وأثنى باسم الرحمن الرحيم، حتى تعرف صفات الله تعالى، فأنا الذى نزل عليه الوحى، أنا محمد المختار، الهادى المهدي، امتطيت ظهر البراق، وجزت أطباق السماء، ثم مثلت بين يدى الخالق فأخذ يتحدث إلى، وأنا أجلس قريبا منه، وأخذ يكشف لى عن معنى القرآن حتى وعيته^(١)»، ثم أتبع ذلك نص القرآن فى قوله تعالى: «ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى».

وفى (ب) أُملى النبى صلى الله عليه وسلم كتابه على علىّ، فقال: «أكتب يا علىّ باسم الله الرحمن الرحيم. من البشير النذير، السراج المنير الراكب على البراق، المخترق السبع الطباق، ومناجى الملك الخلاق، الذى دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، محمد بن عبد الله، إلى سائر خلق الله تعالى، هرقل بن يعقوب المقدم بدمشق^(٢)».

(١) (و) ص ٩ - ١٠، الرباعيات ٤٣ - ٤٧.

(٢) (ب) ص ٤٦ و، ص ٩ - ١١.

أما الأغنية التي كان يتغنى بها «خطارى» فى الطريق (وخطارى هو رسول النبى صلى الله عليه وسلم فى (و) وهو خاطن بن عامر العبسى فى (ب)، فهى: «يا ناقتى أسرعى بمطلب رسول الله، حماك الله، اننى أفديه بروحى وأمى وأبى، لكى أفوز بمحبة الله ومحبه، فأسرعى إلى حيث ألقى الشدائد، والله فى عونك»^(١).

فإذا رجعنا إلى الشعر الذى كان يتغنى به خاطر فى (ب) فإننا نجد التشابه الكبير بين كلا النصين.

ومثل هذا التشابه بين النصوص يصادفنا مرة أخرى فى كلا المخطوطين (ب) و (و)، ففى (و): «سأل النبى رجلا محبا للاستطلاع قائلا: لقد جمعت المحاربين فهلا أخبرتنى إلى أين تمضى بهم، إننى لم أر مثل هذه الحشود تجتمع لكسرى أو لقيصر»^(٢). وفى (ب) جاء رجل من بنى عامر وسأل الرسول: «يا رسول الله، قد اجتمع لك عسكر ما اجتمع لكسرى ولا لقيصر، فأين تريد بهم»^(٣).

ومع هذا الاتفاق بين المخطوط السواحلى (و) والمخطوط العربى (ب) فإن هناك نواحى اختلاف بين المخطوطين. فإذا كان المخطوط (ب) قد اكتفى بذكر رحيل عمر بن الخطاب وأبى بكر وعثمان مع النبى، فإن الشاعر هنا فى (و) قد جعل لهؤلاء الثلاثة دورا فى القتال، وبخاصة عمر بن الخطاب. لقد حارب عمر مع الجيش، بل حارب قائد الجيش الرومى فى مبارزة فردية وقتله، ولم يزل عمر

(١) (و) ص ١٦، الرباعيات ٩٤ - ٩٧.

(٢) (و) ص ٣٥، الرباعيتان ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) (ب) ص ٥١ ظ، س ١٥ - ١٧.

ابن الخطاب يحارب حتى خارت قواه فى النهاية، بعد أن تجمعت جيوش الروم حول الجيش الإسلامى المحارب وقتلت منه عددا كبيرا. وحينئذ كف عمر عن القتال، وهرب المسلمون إلى النبی يخبرونه بالهزيمة، وإلى جانب هذا نلاحظ أن المخطوط (و) صور حادثة عثمان بن عفان حينما كان يزود الجيش الإسلامى بما عنده من زاد بشئ من الاختلاف. فالتاريخ يثبت أن عثمان بن عفان كان أكثر الناس نفقة فى تلك الغزوة - كما ذكرنا، والمخطوط (ب) يذكر أن بعض الناس ذهبوا إلى عثمان ليتزودوا منه، «وكان عنده قوت فأربحوه فى الدرهم درهمين، فأبى ولم يقبل، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله: اتنوني بعثمان بن عفان، فلما أتى عثمان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم لا تبيع القوت لإخوانك المسلمين؟ فقال يا رسول الله، أربحوني فى كل درهم عشرة دراهم، فقال له النبی افعل ما بدالك، بارك الله فيك يا عثمان. فقال عثمان: والذى اصطفاك بالحق نبيا إنما إنا جمعت هذه العنابير لإخواني المسلمين لمثل هذا اليوم لأصدق فيه لحب الله وحبك يا رسول الله^(١)». أما المخطوط (و) فيصور عثمان حريصا على ماله، مترددا فى إنفاقه، حتى استدعاه النبی وقال له: «هل تريد أن تجمع المال لتخزنه فى بيتك يا عثمان، أم تريد جزاء أكبر. إنه لعار عليك يا عثمان، فقال عثمان للنبی: إنه فى وسعى أن أربح فى الدرهم عشرة دراهم، ولكننى لا أطلب ثمنا لما عندى، فأنا أريد جزاء أكبر فى الحياة الآخرة. حينئذ قال له الرسول: أفعل ما بدالك^(٢)».

(١) (ب) ص ٥١ ظ، س ١٥ - ٢٠.

(٢) (و) ص ١٠٩، الرباعيات ٢٥٥ - ٢٥٨.

هل نفهم من هذا الاختلاف بين المخطوطين أن الأصل الذى نقل عنه الشاعر السواحيلي كان مخطوطا آخر غير (ب)، وأن هذا المخطوط ربما كان نسخة محورة من (ب)، أم أن هذا الاختلاف كان مصدره الشاعر نفسه حينما أظهر عثمان فى مظهر المتقاعس عن نصره جيش المسلمين، إلا أن يلومه النبى صلى الله عليه وسلم ويعيره، كما أظهر عمر بن الخطاب فى صورة البطل الذى ما تلبث قواه أن تخور فيهمز هو وجيشه؟

* * *

والى هنا ينتهى عرضنا للمخطوطات التى احتفظت لنا بقصة غزوة تبوك. فإذا قارنا بعد ذلك بين هذه القصة وما يذكر فى التاريخ بشأن هذه الغزوة استطعنا أن نلمس الفرق واضحا بين هاتين الصياغتين، فبينما نجد التاريخ لا يذكر هرقل وبولص، وينفرد بذكر إتمام الصلح بين النبى صلى الله عليه وسلم ويوحنا بن رؤبة صاحب أيلة الموالى للروم، وموافقته على دفع الجزية للنبى، نجد القصة تهمل حادثة هذا الصلح، وتجعل إطار الحوادث يمتد فى اتجاه آخر، هو قيام حرب حقيقية بين جيش المسلمين وجيش الروم.

وبينما يذكر التاريخ حادثة إرجاع النبى صلى الله عليه وسلم لعلى إلى المدينة دون اهتمام بهذه الحادثة، نجد القصة تهتم بها إلى درجة أن تجعلها محور سردها، إرجاع النبى صلى الله عليه وسلم لعلى إلى المدينة، وعدم سماحه له بأن يشترك فى تلك الغزوة الانتقامية من الروم، أمر عظيم فى تصور المسلمين، إذ أن عليا فى

نظرهم يعد سيف الإسلام، وبدونه لا يتم نصر المسلمين، فكيف إذن يقيه النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة ويرحل دونه لحرب تبوك. إن ذلك لم يكن من السهل إدراكه، ولذلك فقد اخترع خيال القاص سببا لإبقاء على فى المدينة. وقد تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك إلا بوحى من السماء. ثم امتد القاص بعد ذلك بخياله فصور المعركة فاشلة بالنسبة للمسلمين، الأمر الذى جعل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يحس بحاجته الشديدة لابن عمه. فما إن تمنى حضوره حتى وصل على بأمر الله فى لمح البصر. وسرعان ما حمل على رضى الله عنه على الكفار حتى تم النصر للمسلمين، وبذلك أنقذوا من هزيمة محققة.

وبعد أن تبينا الاختلاف بين ما ورد فى التاريخ وفى القصة الشعبية بشأن غزوة تبوك يصح أن تتساءل: ما الباعث على تأليف هذه القصة الشعبية؟ أهو الحرب بين المسلمين والروم، والإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى تردد أن الباعث الأول على تأليف هذه القصة إبراز بطولة على بن أبى طالب النموذجية، ولكننا يجب ألا ننسى أن اشتباك المسلمين مع الروم كان باعثا آخر على تأليفها وإن كان يأتى فى المرتبة الثانية. وربما يعرض معترض بأنه كان من الأحرى أن تؤلف هذه القصة حول غزوة مؤتة التى تعد أول احتكاك بين المسلمين والروم ومن والاهم من العرب، وهنا نجيب بأن القاص لم ينسى تلك المعركة، فتصوير الأزمة التى حلت بالمسلمين فى تبوك - بحسب القصة - لم يكن إلا صدى للأزمة الحقيقية التى حلت بالمسلمين أن مؤتة، والتى انتهت بهزيمة جيش النبي صلى

الله عليه وسلم فى أول معركة له مع الروم. وكذلك كان ظهور هرقل فى قصة تبوك صدى لما حدث فى غزوة مؤتة، فالثابت تاريخياً^(١) أن جموع هرقل من الروم والعرب قد حاربت ضد البعثة التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم لتستطلع الأمور فى مؤتة.

ولم يحاول القاص والشاعر الشعبى أن يخصا هذه الغزوة - غزوة مؤتة - بقصصهما لحرصهما دائماً على تصوير انتصار المسلمين لا اندحارهم.

ويبقى الآن أن نشير إلى تاريخ تأليف هذه القصص. وهنا نجدنا نواجه مشكلة مؤلفيها. وقد سبق لنا أن ذكرنا قصة من بين هذه القصص تحمل اسم راويها وهو أبو الحسن البكرى. فمن أبو الحسن البكرى؟

تشير بعض القصص التى رواها غير هذه القصة إلى أنه كان واعظاً بصرياً^(٢)، وفيها يرد اسمه كاملاً: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى الواعظ البصرى. ولكن فى أى زمن عاش هذا الراوى؟ وهنا لا تمدنا النصوص بجواب قاطع. وسنعرض هنا الآراء التى ذكرت بشأن هذا القاص، لعلنا نستطيع أن نستخلص رأياً يعيننا على الوصول إلى تاريخ هذه القصص وإن يكن هذا التاريخ تقريبياً.

يقول سر كيس فى معجمه: «أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد - لا يمكن التحقيق عن هذا المصنف الذى تنسب إليه الكتب الأتية، وهى تتضمن حكايات غير ثابتة:

(١) ابن هشام - السيرة، ج ٢ ص ٣٧٧.
(٢) انظر فهرس المخطوطات العربية ببرلين، ج ٩ ص ١٧٩.

١- غزوة الأحزاب، وما جرى للإمام على الغلاب الوثاب،
والصحابة والأحباب.

٢ - فتوح اليمن أو غزوة راس الغول.

٣ - قصة إسلام الطفيل بن عامر^(١).

ويذكر الأب شيخو اليسوعى فى كتابه مجانى الأدب نصا عن
الصفدى دون ذكر للمرجع الذى نقل منه النص، يشير إلى أن أبا
الحسن البكرى هذا كان قد اشتهر بالكذب^(٢). أما كتاب شرح
مجانى الأدب فقد قال عنه دون أن يذكر مرجعه: «هو أبو الحسن
أحمد بن عبد الله الكبرى صاحب كتاب الأنوار ومفتاح السرور
والأفكار فى مولد محمد. وله أيضا كتاب الحكم وغير ذلك، ولا
يوثق بروايته. كان يخلق الكلام كثير الكذب، توفى فى أواسط القرن
الثالث للهجرة^(٣)».

وكذلك أورد القلقشندى اسم هذا الراوى فى كتابه صبح
الأعشى فى فصل «من كان فردا فى زمانه بحيث يضرب به المثل
فى أمثاله» فقال: «وأبو الحسن البكرى فى الكذب^(٤)».

وقد استعان الدكتور «باريت» بنص الصفدى عن أبى الحسن
البكرى الذى ساقه الأب شيخو فى كتابه مجانى الأدب دون تحديد

(١) مركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ٥٧٨.

(٢) شيخو اليسوعى: مجانى الأدب فى حقائق العرب، بيروت ١٨٨٥، ج ٢ ص
٢٣٤.

(٣) أحد الآباء اليسوعيين: شرح مجانى الأدب، بيروت ١٨٨٦، ج ٧ ص ٣١٢.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، القاهرة عام ١٩١٣ نج ٢ ص ٤٥٤.

لمرجع الصفدى - استعان به فى تحديد الزمن الذى عاش فيه أبو الحسن البكرى. فلما كان الصفدى قد توفى عام ٧٦٤هـ، ولما كانت بعض المخطوطات التى تتضمن قصصا شعبية فى الغزوات وغيرها، والتى نجد بعض قصص أبى الحسن البكرى قد جمعت معها فى مجلد واحد، تشير إلى أن أحد مؤلفى بعض تلك القصص توفى عام ٦٩٤ هـ، فقد استنتج الدكتور «باريت» أن أبا الحسن البكرى هذا قد عاش على وجه التحديد فيما بين ٦٩٤ هـ (أو قبل ذلك قليلا كما يقول) و ٧٦٤ هـ^(١).

هذا إلى جانب أسباب أخرى قدمها الدكتور «باريت» للاستدلال على تأخر زمن تأليف هذه القصص، وهى: «أن محتوى قصص السيرة هذه وأدب المغازى إنما يتوافق مع العصر الذى وصل فيه تأثير التراث الإسلامى ذروته، والذى اتسع فيه نطاق الإيمان بالأضرحة والأولياء إلى الحد الذى جعل ابن تيمية (توفى عام ١٣٢٨م) يعلن سخطه^(٢)».

ويذكر أحد الباحثين قصة لعلى بن أبى طالب تتفق والقصص الذى نحن بصدد فى مسألة بطولته النادرة. فالقصة تذكر «أن فاطمة بنت أسعد بن هشام - أم على - رأت فى منامها قبل أن تضع عليا أن النور يملأ حجرتها، وأن الجبال التى تحيط بالكعبة تسجد خشوعا، بينما كانت تحمل فى يدها أربعة سيوف. وفجأة وقع أحد

Rudi Paret: Die Legendare Maghazi - Literatur, Verlag von J.C.B. (١) Mohr.

Ibid J.P. 150.

(٢)

هذه السيوف فى الماء وطار الآخر فى الفضاء متجها نحو السماء ثم اختفى، وحاول الثالث أن يصنع ما صنعه السيف الثانى ولكنه سرعان ما تحول إلى أسد أخذ يجرى مسرعا نحو الجبال، باعثا الرعب فى قلب كل إنسان. ولم يستطع أحد أن يقترب منه إلا النبى .. فلما وصلت الأنباء إلى النبى بولادة على ذهب ليزور والدى الطفل. وما أن رأى عليا لأول مرة حتى أخذ شيئا من بصاقه من فوق شفتيه ومسح به شفتى الطفل. وسرعان ما ابتلع على هذا البصاق، وبذلك اكتسب المعرفة والقوة كما اكتسب القدرة على صنع الخوارق. ومنذ ذلك الوقت أصبح مظفرا دائما فى القتال، كما كان سيد المعارك وأعمال البطولة^(١).. ولما تذكرت أم على الرؤيا التى كانت قد رأتها قبل أن تضع طفلها سمات عليا الحيدر (الأسد). وأعلن النبى صلى الله عليه وسلم منذ ذلك الوقت أن عليا سيكون أسد الله، ثم رفع النبى صلى الله عليه وسلم عمامته وجعل أحد طرفيها حول رأسه والطرف الآخر حول الطفل، وبذلك توج على بتاج البهاء^(٢). ثم كبر الطفل، وأخذ يشهد المعارك وهو صبي، «وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعين به إذا ما أوشكت الهزيمة أن تحل بجيش المسلمين، وعندئذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يسلمه رايته وسيفه ذا الفقار، ويطلب منه أن يهجم على جيش العدو ويلحق به الهزيمة. ولم يفشل على مرة فى صنع ذلك»^(٣).

ونكتفى بهذا القدر من قصة على، إذ أن فى هذا القدر ما يوضح

John P. Brown: The Darviahes or Oriental Spiritualism, London. (١)
Oxford Univ. Prens 1927, P. 389.

Ibid : P. 390. (٢)

Ibid : P. 401. (٣)

لنا أن البطولة تظهر هي بعينها في قصص غزوة تبوك، فعمامة الرسول وسيفه ذو الفقار قد لعبا دورا مهما في إحاطة على بهالة من البهاء والفخر. وكذلك كان على الحيدر مبرزا في القتال، بل إن الجيش الإسلامي بأكمله كان يعجز عن القيام بما كان يقوم به على بمفرده.

وإلى جانب هذه الأسباب التي ترجح تأخر الزمن الذي ألفت فيه هذه القصص، تمدنا بعض المخطوطات بسبب آخر حسى يزيد في ترجيح هذا الافتراض، إذ ترد في ثنايا هذه القصص كلمة اسطنبول^(١) بدلا من القسطنطينية.

وتشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أن لفظ اسطنبول قد ظهر متأخرا، وأنه قد أصبح مألوفا في الاستعمال اليومي منذ عصر ابن بطوطة، أى في القرن الثامن الهجرى^(٢).

لقد ألفت قصص غزوة تبوك إذن في عصور متأخرة. ولسنا نستطيع أن نقطع بأن أبا الحسن البكرى - إذا صح أنه قد عاش في تلك العصور المتأخرة - هو المصدر الأول لهذه القصص، فمن المحتمل أن تكون هذه القصص مما كان يدور على ألسنة الشعب قبل أبى الحسن البكرى، وأنه كان يصوغها صياغة جديدة ليستغلها في وعظه.

وإذا كنا قد فرغنا من الكلام عن مشكلة زمن تأليف هذه القصص، ودرسنا الدوافع الباعثة على تأليفها، ورسمنا صورة

(١) (هـ) ص ٧٩ و، البيت ٢٧٧، (و) ص ٢٠٦ الرابعة ٥٢٣.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أسطنبول.

للفروسية الإسلامية - فى صراعها ضد الروم - كما تصورتها طائفة من الشعب متمثلة فى على بن أبى طالب - إذا كنا قد فرغنا من ذلك، فإننا نتمم دراستنا لهذه القصص بعرض الصورة التى رسمها القاص الشعبى للروم، أو بالأحرى للملكهم هرقل.

أما هرقل فهو فى نظر القاص فرعون عصره. ولذلك فقد استخف أيما استخفاف بما سمعه من أن النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدخول فى الإسلام، وسرعان ما رد على رسول النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: «بمن يهددنا محمد؟ برعات الإبل أو بأوباش البادية؟ أما علم أننا ملوك الأرض طولاً وعرضاً، وقهرنا جميع الملوك والأكاسرة، وأنا لو أردنا أخذناه وقلعنا دابرته فى ديننا»^(١) وقد وجد القاص المجال مرة أخرى لأن يخلع البهاء الفرعونى على هرقل حينما خرج للقتال يتقدم الصفوف. قال: «ثم سار (أى هرقل) مقدم العسكر وهو راكب على جواد أغر أجسم، له غرة كالدرهم، صلب الدعائم، مليح القوائم، مقبب الحوافر، يجلى النواظر، واسع المناخر، بمركب من الذهب الأحمر، مرصع بالدر والجوهر، وعليه درع داودى ضيق الزرد، محكم العدد، وفى يده رمح وعلى رأسه سات (كذا) افرنجى، متقلد بسيف جديد السباك، وعلى رأسه بيضة فرعونية»^(٢).

هذا البهاء وتلك الثروة التى أحاط بها القاص الشعبى ملك الروم استبدل بهما - حينما أراد أن يصور النبى صلى الله عليه وسلم وقد

(١) (ب) ص ٤٨ و، س ل ١١ إلى ١٣.

(٢) (ب) ص ٥٨ و، س ١٢ إلى ١٥، ص ٥٨ ظ س ١، ٢.

تقدم الجيوش - الوقار وجلال النبوة للذين ورثهما النبی عن إبراهيم وإسماعيل. يقول القاص: «وركب النبی ناقته العظباء، وليس حلة إبراهيم ورداء إسماعيل، وتدرع بدرعه الفاضل، وتعمم بعمامته السحاب، وتنكب بحجفته وشد وسطه بمنطقة جده عبد المطلب^(١)».

ومثل فرعون، كان هرقل كافرا مستغرقا فی الکفر، فهو إن کان قد آمن بعيسى ابن مريم، لقد كان ما يزال یعبد اللات والعزی والهیل الأعلى ویقر بربوبیتها، وقد عبر هرقل عن ذلك فی كتابه إلی النبی (ص) قال: «فإنی لا أقر إلا بعيسى ابن مريم، ولا أعرف ربا غیر اللات والعزى والهیل الأعلى^(٢)».

ولما كان هرقل ومن حوله عبدة أوثان، فقد كان رسول النبی صلی الله علیه وسلم حريضا علی أن یوجه للأسقف - حیثما دخل علیه - سلام الجاهلیة لا الإسلام. فاغتاظ الأسقف وقال له: «یا أعرابی ما منعک من السلام؟ فقال: «حاطب»: یا أبکم هذا سلام عدو الدین^(٣)».

وبرغم غرور هرقل وكبریائه، كانت تنتابه أحيانا لحظات من الضعف والخور حیثما كان یفکر فی الدین الإسلامی وفی نبیه محمد صلی الله علیه وسلم. وحینئذ کان یحس أنه فی حاجة إلی من یعید إلیه ثقته بنفسه وبدینه. ولذلك استدعى القس الذی کان

(١) (ب) ص ٦٠ ظ، س ٨ إلی ١١.

(٢) (ج) ص ٢٢ ظ، ص ٢٣.

(٣) (ج) ص ٢١ ظ، س ١٢ إلی ١٥.

علما بالأديان، حتى يؤكد له كذب دعوة النبی صلى الله عليه وسلم. فما أن فاجأه القس بأن التوراة قد بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى انزعج الملك هرقل، وأبى الاعتراف، وقتل القس.

بهذا الخيال صنع القاص الشعبي صورة هرقل. ولم يمتد خياله إلى أبعد من ذلك في رسم صورة للشعب الرومى، إذ أن موقعتي تبوك ومؤتة، اللتين حدثتا على الحدود الرومانية، لم تتيح الفرصة لاتصال كبير بين جنود الإسلام وجنود الروم، وإنما حدث هذا الاختلاط بين الشعبين العربى والإسلامى والرومى والمسيحى فى أزمنة أبعد من ذلك، وحينئذ تفجر الأدب الشعبى عن تلك الصورة المفصلة لشعبين امتد صراعهما الدينى أجيالا وأجيالا.

وبعد أن ناقشنا المشكلات التى يمكن أن تثار حول الأدب الشعبى الذى قبل فى غزوة تبوك، نكون قد انتهينا من عرض أول نتاج شعبى وصل إلينا، يتصل بالغزوات الأولى ضد الروم. لقد كانت فكرة البطولة تشغل الشعب كما تشغله دائما فى كل مكان وزمان فأراد أن يصورها. متمثلة فى البطل النموذجى على بن أبى طالب.